جثة في بيت الدكتور فكري

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

الدكتورُ فكْري أستاذٌ ضيفٌ في بلدٍ عربيٍّ. وهو كأغْلَبِ أهلِ بلدِهِ خفيفُ الظِّلِّ، بَشوشٌ جَمُّ الأدبِ، حاضرُ البديهةِ، بارعُ النكتة. لا تكادُ تلقاه إلا ويُتْحِفُكَ بنُكتةٍ لطيفةٍ أو قَفْشَةٍ ظريفةٍ أو حكايةٍ طريفةٍ، ولو على نفسِهِ! كان يحبُّ أن يحكيَ ما يقعُ فيه من مقالبَ من جرَّاءِ اختلافِ العاداتِ والتقاليدِ واللهجاتِ بين بلَدِهِ الأصلي والبلد المضيف.

كان الأستاذ فكري أعزبَ، يعيشُ في شُقَّةٍ وحدَه، وله خادمةٌ عجوزٌ سوداءُ تُدْعَى «دادة مبروكة» تقومُ بشؤونه اليوميةِ. ولكنَّ مظهرَه كان يبدو دائمًا في حاجَةٍ إلى إصلاحٍ، الأمرُ الذي كان يثيرُ شَفَقَةَ الناسِ عليه، خاصَّةً النساءَ. قمصانُه لم تكن مكويةً كما يجبُ، وبذْلُهُ لم تَرَ التنظيفَ على الناشفِ منذ أن اشتراها، فكانت تَبْدُو وكأنه ينامُ فيها.

وكان هو يُحِسُّ بذلك وسَطَ مجْتَمَعِه الجامعيِّ الأنيقِ، ويُعاني الحرَجَ والارْتباكَ. فأخذ يَرْتَدي مِعْطَفًا خفيفًا فوق بِذْلَتِهِ صيفًا وشتاءً. وسأله صديقٌ له مرةً:

– لماذا تلبسُ المعطفَ، يا دكتور؟

– حتى لا أصابَ بِبردٍ.

– ولكن الدُّنيا حَرٌّ!

– وماذا؟ هل سمعتَ بأحدٍ أُصيبَ بِحَرٍّ!؟

كان مردَّ إهماله مظهرَه الخارجيَّ خادمهُ العجوزُ التي صارت، بعد أن تقدَّم بها السنُّ، تكتفي بالحدِّ الأدْنَي من الضروري، لتوفيرِ طاقَتها. ولم تكن تُعْنَى بمظهرِه لضُعْفِ بصرِها في السنواتِ الأخيرةِ، فلم تكن ترى فيه ما يتطلَّبُ عنايتهَا.

وزاد الطينَ بلَّةً ما بدأ يظهَرُ عليها من أعراضِ النسيانِ والتخريفِ، بحيثُ أصبحت عِبْئًا عليه بَدَلاً من مُساعِدَةٍ له! ولكنَّه كان يُحبُّها ويعطفُ عليها. فقد عرفتْ دادة مبروكة، كما كانت تُحبُّ أن تُدْعَى، أيامًا أجملَ في خدمةِ ناسٍ أماجد كبارٍ، وفي قصورٍ عريقةٍ انقلَبَ الزمانُ على أهلِها، وفرَّقت جمعَهُم الأيامُ!

وكانت مثلَهُ عازبةً، بلا زوجٍ ولا أولادٍ. مات عنها زوجُها، وتبعَه ابنُها الوحيدُ إلى دارِ البقاءِ، ولم يبقَ لها منهما إلا ذكرى غامضةٌ بعيدة...

وذات يومٍ زار الدكتورَ فكريَّ صديقٌ له، فلاحظَ ما آلت إليه حالُه من تفريطٍ، وشُقَّتُهُ من وساخةٍ وإهمالٍ، فكلَّمَه في ذلك، فأَفْضَى إليه بما يُعانيه من خادمِه العجوزِ التي كَبِرَتْ وتعبَت.

واقترح عليه الصديقُ أن يستَبدلَ بِهَا خادمًا أصغَرَ سنًّا، فرفض الدكتورُ فكري، بدعوَى أنه عرَفَ المرأةَ منذ مدَّةٍ طويلةٍ، وبأنها لا أهلَ لها إلاَّ ابنةُ أخْتٍ في بلدٍ آخرَ، لا تستطيعُ إيواءَها بصفةٍ دائمةٍ، لكثرةِ عيالِها وصُعوبةِ طَبْعِ زوجِها وقلَّةِ ذاتِ يَدِهِ. ثم إنه ليس من الوفاءِ ولا المُروءَةِ الاستغناءُ عن شخصٍ في أيامِ عجزِهِ، بعد أن خَدَمَكَ في أيَّامِ صحَّتِهِ!

واقترحَ الصديقُ أن يأتِيَه بخادمٍ صغيرةٍ تساعدُها، على أن تبقَى هي سيدةَ البيتِ. ووافقَ الدكتورُ فكري على الاقتراحِ، على أن تكونَ الخادمُ الجديدةُ ليِّنةَ الطبعِ، لتنسجِمَ مع دادة مبروكة.

* * *

ويظهرُ أن دادة مبروكة لم تَسْمَعْ من الحديثِ إلا بعضَهُ لثِقْلِ سمْعِها، ففهمتْ أن مَخدومَها يريدُ الاستغْناءَ عنها...

وخرج الدكتورُ فكري إلى عمله ذلك الظُّهْرَ، وحين عاد في المساء طرقَ البابَ فلم يفتحْ له أحدٌ، فاضْطُرَّ إلى استعمالِ المفتاحِ.

وحين فتح البابَ فُوجِئَ بدادة مبروكة ممدَّدَةً على زَربيَّةِ المدخلِ، جامدةً دون حراك! فصاح ذاهلاً:

– يا نهار أسود! يادي المصيبة!

أوَّلُ ما خطر ببالِه أنها فارقتِ الحياةَ، فانزعجَ انزعاجًا شديداً، لا لموتِها فذلك متوقَّعٌ، ولكن لما سيُضْطَرُّ للقيام به من مراسيمِ الجنازةِ والدفنِ وغيرِها من مطالبِ وإجْراءاتٍ مُعقدَةٍ، لا قِبَلَ له بها، ويجهَلُها تمامًا حتى في بلَدِه، فما بالُكَ في بلدٍ غريبٍ، خصوصًا وأنَّ وفاتَها جاءت فجأةً، وفي وقتٍ غيرِ مناسبٍ بالمرة! فالسنةُ الدراسيةُ اقتربَتْ من نهايَتِها، والامتحاناتُ وما تقْتضيه من إشْرافٍ وتصحيحٍ واجتماعاتٍ أصبحت على الأبوابِ!

وفي غمرةِ غمِّه وحسرته راوده الأملُ في أن تكونَ دادة مبروكة مُغْمىً عليها أو نائمةً فقط. فانحنَى ووضع يدَه أمامَ أنفها فهبَط قلبُه. لا أثَرَ للتنفُّس! وليتأكَّدَ، أمسكَ بيدها فانفلَتَتْ من يده وسقطتْ هامدةً! وعاد إلى الإمساكِ بها وجَسَّ رُسْغَها ليقيسَ نَبْضَها، فخفَقَ قلبهُ وداعبَهُ الأملُ. ما يزالُ هناك نبضٌ واهنٌ... إنَّها ما تزالُ على قيدِ الحياة!

واقتربَ من أُذُنِها وناداها بصوتٍ عالٍ فلم تستَجِبْ. وحرَّكَها لتُفيقَ دون جدْوَى. فقال في سِرِّه: «ما فيش فايدة! العجوزُ مُصِرَّةٌ على الموتِ!»

* * *

وقف يُفكِّرُ قليلاً، ثم قَرَّرَ الخروجَ إلى الشارعِ. فهو لا يُحْسِنُ التفكيرَ إلا ماشيًا في الشوارعِ والأزِقَّةِ الخاليةِ.

وقال لنفسِه وهو يُفكِّرُ في مَخْرَجٍ من مأزَقِه: «إذا كنتُ أحملُ دكتوراه في الفلْسفةِ وعِلْمِ النفسِ وعلمِ الاجْتماعِ، ولا أستطيعُ حلَّ مشكلةٍ صغيرةٍ كهذه، فالأحسَنُ أن أُعيدَ شهاداتي للجامعةِ، وأتخَلَّى عن التدريسِ والمحاضَرةِ!»

وبعد مسيرةٍ طويلةٍ، خرج بفِكْرةٍ ساذَجَةٍ في مستوى تفكيرِ العجوزِ المُتَماوِتَةِ. ومرَّ على الصديقِ الذي اقترَحَ عليه الخادمَ الشابَّةَ، وحكى له ما حدثَ، وشرحَ له طريقةَ التخلُّصِ التي خَطَرَتْ لَهُ.

وغيَّر الصديقُ ملابسَه، وارتدَى جلبابًا صُوفيًا خشنًا وتعمَّمَ، ودخلَ المطبخَ ووضعَ ساطورًا وعددًا من السكاكينِ الكبيرةِ والصغيرةِ في قُفَّةٍ، ورافَقَ الدكتورَ فكري إلي شُقَّتِه. .

وفتح الدكتورُ بابَ الشقةِ آملاً أن يجدَ دادة مبروكة قد راجعت نفسَهَا، وفكَّرَت في سُخْفِ اللُّعْبةِ، وتراجعت عن ميْتَتِهَا ونهضت إلى عَمَلِها، فخاب أملُه! كانت ما تزالُ مُسْجَاةً على الزربيةِ وسَط الدارِ كما تركَها.

وهمَسَ في أُذُنِ صديقِه مُذكِّرًا له بأنْ يغيِّرَ صَوْتَه ليُناسِبَ مِهنةَ الجزَّارِ، فأخذ يتكلَّمُ بصوتٍ أَجشَّ لا يصدُرُ إلا عن جزَّارٍ ضخْمٍ يملأُ الشحْمُ جوفَهُ...

وبدأ الدكتورُ فكري الكلامَ متصنِّعًا الحُزْنَ والألمَ: «هذه هي دادة مبروكة المسكينةُ التي قلتُ لك عنها. لقد عمِلَتْ

عندي مدَّةً طويلةً بمنْتَهَى الوفاءِ والإخلاصِ. وهي سيدةٌ لا أهلَ لها بالمرَّةِ، ولن يفْتقِدَها أحدٌ. وقد تُوفِّيت فجأةً، كما ترى. وأنا رجلٌ غريبٌ في هذا البلدِ، ولا أريدُ مشاكلَ. ولا أحبُّ أن تدورَ الشكُوكُ والشائعاتُ حول اسْمِي، ويبدأ البوليسُ في التنقيبِ في حياتي وسينْ وجيمْ وما إلى ذلك... وأنا رجلٌ غلبانُ، ولا أستطيعُ بدء حياتي مرةً أخرَي في بلدٍ آخرَ. فأرجوكَ أن تفكِّرَ لي في حلٍّ، وتُخْرِجَنِي من هذه الورْطَةِ، نجَّاكَ اللهُ من حسرَاتِ الدنيا والآخرَةِ!»

وتكلم الصديقُ بصوتِه الأَجَشِّ المستعارِ مسْتعملاً عباراتِ الجزَّارين، مُقَلِّبًا الجثة بيدٍ قويةٍ خبيرةٍ، وواصفًا له كيفَ سيُقَطِّعُ الهالكةَ أطرافًا وقِطعًا صغيرة يصعُبُ التعرُّفُ عليها، ويضَعُها في أكياسٍ من البلاستيك، ويَحْمِلُهَا في سيارَتِه إلى محرقَةِ المجزَرَةِ، حيثُ تأكُلُها النيرانُ. وأضاف: «تعالَ احْمِلْ معي الشُّغْلَ إلى حوضِ الحمَّامِ حتى لا نُوسِّخَ وسَطَ الدارِ.»

وأخذ يخلَعُ جلبابَه، ويسمِّي اللهَ، ويُقَرقِعُ السكاكينَ وَيَشْحَذُ بعضَها في بعضٍ، فإذا العجوزُ تَئِنُّ وتتحرَّكُ وتُفيقُ من

مَيْتَتِها بِقُدْرَةِ السميعِ العليمِ، وتَعْتَدِلُ جالسةً في مكانِها باكيةً مُعْلِنَةً توبَتَها، راجيةً الدكتورَ فكري أنْ يُسامِحَها. وساعَدَها الرجُلانِ على الوقوفِ والذهابِ إلى غُرفَتِها، حامدين اللهَ لها على السلامَةِ، وهي تُرَدِّدُ: «هكذا أصبحتُ مجرَّدَ «شُغْلِ الجزّارِ!»

وبعد أن سقَوْها كأسَ ماءٍ، شرَحَ لها الصديقُ بلهجة بَلَدِها ما يريدُهُ الدكتورُ فكري من الخادمِ الجديدةِ، وأكَّدَ لها أنها لن تكونَ إلا مُساعِدةً لها. وستبقى دادة مبروكة سيدةَ البيتِ إلى أن يأخُذَ صاحبُ الأمانةِ أمانَتَه!

وهدأتْ قليلاً، ثم انخَرَطَتْ في البُكاءِ مرَّةً أُخْرى، مُعاتبةً الدكتورَ على ما كان ينْوي أن يفْعَلَه بها، بعد موتِها، بدلَ أن يُقيمَ لها مَأْتمًا ويدْفِنهَا دَفْنَ المسلمين مُعزَّزَةً مكرَّمَةً...

فضحِكَ الدكتورُ فكري، وقال لها: «انْظُري جيِّداً إلى وجْهِ الجزَّارِ!» ونظرتْ إليهِ، فتعرَّفَتْ عليه، وغَلَبَها الضحكُ: «أنتَ هو الجزّارُ!؟ يالي من مُغَفَّلَةٍ!»

فقال الدكتور فكري: «أنتِ أعَزُّ علينا من عَيْنَيْنَا، يا دادة

مبروكة. ولكنَّني أردتُ أن أُبادِلَكِ مِقْلَبًا بمقلَبٍ ومِزاحًا بمزاحٍ حتى لا تَعُودي لمثلِ هذهِ الأفاعِيلِ!»